عولمة الإعلام وتأثيره على اتجاهات وقيم الأطفال

"برامج التلفزيون نموذجا"

د. محمد أوبلقاسم جاجه

جامعة منتوري ـ قسنطينة

لعل من أبرز صور المخطط الغربي اليوم ـ والذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية ـ العمل الدؤوب والمتواصل للهيمنة على مجتمعات العالم العربي الإسلامي، وجعلها تسبح في فلكه، وذلك بتقديم النموذج الغربي للحياة على أنه الأفضل والأنجع والأرقى في كل المجالات سواء تعلق الأمر بطرق وأساليب التفكير، أو بأنماط المعيشة والسلوك، كالأكل واللباس والتعاطي مع المشكلات اليومية، أو بآليات البحث وإدارة الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وأن الوصول إلى تحقيق هذا الهدف، يعتبر في متناول الغرب، نظرا لضخامة الآلة الإعلامية والاتصالية المسخرة لتحقيقه، وإدامته لما لها من قوة التأثير على عقول الناس وأفكارهم واتجاهاتهم وقيمهم، ومعتقداتهم التي أضحت قابلة للتغيير والتبدل في الاتجاه السلبي، مع سرعة التغيرات الحادثة في العالم المعاصر، وهو ما يمثل مؤشرا حقيقيا على قوة التأثير وفعاليته لوسائل الإعلام عامة، وللتلفزيون خاصة.

وكنتيجة لهذا العمل المخطط نجد اليوم أن كل التحاليل التي تتناول التغييرات الهيكلية في العالم تنطلق بالدرجة الأولى من تصور ارتباطها بعوامل ذات صلة وثيقة بالعولمة.

ومنه لعل السؤال الذي نطرحه، ونتوسم الإجابة عليه : ما الدور الذي يؤديه النظام الإعلامي الجديد في عولمة القيم والاتجاهات ضمن النسق الثقافي العام لبلداننا ومجتمعاتنا بالخصوص؟

عولمة الإعلام. أم إعلام العولمة ؟

غالبا ما يرتبط مفهوم العولمة (MONDIALISATION) بالمجالات السياسية، والاقتصادية والثقافية، في علاقات مبنية على إرادة الهيمنة الفكرية والتكنولوجية، مع العمل على إلغاء لكل الخصوصيات الثقافية للمجتمعات والدول (دول الهامش) على حد تعبير محمد عابد الجابري[1] وبالتالي فهي تختلف عن مفهوم العالمية (UNIVERSALISME) الذي تمثل في نظره اتجاها يرمي إلى الارتقاء بتلك الخصوصيات الثقافية إلى مستوى عالمي عن طريق الانفتاح والتواصل مع الآخر المخالف في اللغة والمبدأ والتاريخ على أسس من التكامل والتعاون والتعايش السلمي.

ومهما تكن غايات العولمة، فهي لا تحقق أهدافها بمعزل عن التطور المذهل لوسائل الإعلام والاتصال التي أضحت تعمل وبشكل مستمر على نقل بدائل ثقافية للقيم والعادات والتقاليد الاجتماعية، والترويج لقيم استهلاكية في حملات دعائية منتظمة للسلع والمنتجات التي تنتجها الشركات المتعددة الجنسيات، جاعلة مجتمعاتنا العربية الإسلامية سوقا مثمرا لها.

لقد أضحت الولايات المتحدة الأمريكية القوة الوحيدة المهيمنة في العالم، وتحولت بفضل ترسانتها العسكرية الضاربة والإعلامية، إلى قوة مركزية مهيمنة فارضة نموذجها الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي تروج له تحت مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان. لتجعل من هذا النموذج نمطا يجب تطبيقه والعمل به بالنسبة لبقية دول العالم.

ومما ساعدها على تحقيق ذلك هو احتواء جميع المنتجات الثقافية، والحاملة للثقافة على رسائل ذات مضامين معبرة عن النموذج الأمريكي الذي بدأ يتضاعف تماشيا مع تطور أساليب وتقنيات التأثير الهادف إلى تغيير الأفكار والاتجاهات،

---

[1] محمد عابد الجابري، في المستقبل العربي (العدد 9، 1998)، ص 63.

وذلك بخلق قناعات منشودة انطلاقا من عملية التأثير التي تتم بصورة غير مباشرة عن طريق البرامج والأفلام والمسلسلات وغيرها من الأشكال التي تجعل المتلقي يقارن بين حاله وحال الآخرين في المجتمعات الأخرى.[1]

إن هذا التأثير مدين في جوهره لترسانة اتصالية وإعلامية ضخمة تعمل على مدار الأربع والعشرين ساعة، وطيلة أيام السنة على توجيه رسائل ذات مدلول ثقافي وقيمي تعمل على ربط الأفراد بواقع بعيد عنهم، يتوقون فيه للتقليد والمحاكاة بانبهار لنماذج سلوكية وفكرية يعتبرونها الأفضل في دلالاتها على التقدم والعصرنة. إذ يوجد بأمريكا اليوم على سبيل المثال أكثر من 1700 جريدة يومية، وآلاف من النشرات الأسبوعية، و9000 محطة إذاعية، و7 مراكز إنتاج رئيسية، و2500 دار نشر.[2]

وتأسيسا على ما تقدم يتضح لنا أن القابلية الكبيرة للأفراد والجماعات في تبني معايير سلوكية غريبة عن ثقافاتهم لا يرتبط فقط بالسياق الاجتماعي والتنموي، بقدر ما ترتبط بالتعامل المستمر بمحطات البث الفضائي الذي أصبح يغطي جميع أطراف الكرة الأرضية، محولا هذه الأخيرة إلى قرية كونية صغيرة، وأن مظاهر الانحلال الخلقي، وانتشار قيم جديدة سلبية مستهجنة، واتجاهات ضعيفة لكل ما هو أصيل وجميل بين الأطفال والشباب وحتى الكبار في بعض المجتمعات العربية الإسلامية ـ والتي تعد بلادنا جزء منها ـ إنما هي في نهاية الأمر ليست إلا انعكاس لآلية التغير المستمر الذي طبع حياتنا المعاصرة في الربع الأخير من القرن الماضي ومع بدايات هذا القرن، وللتأثيرات المتنامية لاستهلاك المنتجات الثقافية للغرب المتقدم والمتطور، الحاملة لبدائل فكرية وقيمية وسلوكية على كل أفراد المجتمع.

---

(1) حسين خريف، "عولمة العنف، أي دور للنظام الإعلامي"، مجلة العلوم الإنسانية، (العدد 18، ديسمبر 2002)، ص57.

(2) نفس المرجع، ص 56.

تأثيرات وسائل الإعلام والاتصال على القيم والاتجاهات

لا يولد الكائن البشري ولديه صفات جاهزة من الناحية الخلقية، فالاتجاهات والقيم، ليست مما يرثه الإنسان عن أسلافه بالطرق البيولوجية.

إن عملية اكتساب القيم والاتجاهات، تبدأ في الظهور خلال مراحل النمو المختلفة، ويمكن ملاحظتها بدءا من بلوغ الطفل مرحلة التمايز النفسي، التي تهيئ لها عملية الانتقال من حالة الالتصاق بالأم إلى حالة الانفصال التدريجي عنها. فيبدأ الطفل في امتصاص واستيعاب قيم المجتمع وتقاليده من الكبار المحيطين به، سواء أكانوا من داخل الأسرة أو من خارجها، حيث يسمح له نموه النفسي والحركي بالتعامل معهم، وهذا ما يؤثر بدوره في نواحي النمو المختلفة الأخرى.[1]

ذلك أن وصول الطفل إلى المرحلة التي يكون فيها قادرا على تمييز ذاته يتضمن بالضرورة القدرة على فهم التمايز بين ألوان نشاطه وسلوكه وخصائصه الشخصية، وإدراكه لها، كما أنه يتعلق بتنامي القدرة لديه على تنمية الجوانب الانفعالية.

وهذا النظام القيمي الداخلي الذي يأخذ في التكون لديه، من شأنه أن يساعده على تكوين فكرة عن ذاته وعن الآخرين، وينمو لديه الاتجاه نحو التوقع لأنماط السلوك التي من شأنها أن تلقى الاستحسان والقبول.

وكلما أصبح الطفل أكثر قدرة على التحكم في إصدار استجاباته وضبطها، يصبح أكثر اعتمادا في ضبط سلوكه والتحكم فيه وفقا للقيم والمعايير التي أخذت تصبح جزءا من شخصيته، لا على قيم ومعايير خارجية.[2]

وإذا كان تكوّن القيم والاتجاهات يرتبط بالنضج الجسمي والانفعالي من جهة، فإنه من جهة أخرى لا يحدث إلا من خلال عملية التنشئة الاجتماعية التي

---

(1) إسماعيل الملحم، تعلم الطفل في الأسرة والمدرسة، دار علاء الدين: دمشق، 1995، ص 62.

(2) نفس المرجع، ص 62.

تكسبه خبرات تحدد سلوكه وتعلمه، والتربية التي تكسبه المعايير التي يحكم بواسطتها على سلوكه وعلى سلوك الآخرين، ويضع تبعا لها المستوى الذي يطمح لتحقيقه، بحيث تكتسب المعايير لديه دلالة تعبر عن الكمال السلوكي الذي يرتبط بتصوره عن المثل الأعلى والقيمة التي يعبر عنها. وفي هذا يؤكد كل من "أوغبورن" (OGBURN) ونيمكوف (NIMKOFF)[1] على الأثر الكبير الذي تمارسه الأسرة في تشكيل الشخصية القاعدية (La personnalité de base) للطفل.

وبديهي أن عملية تكوين القيم والاتجاهات في الطفل لا تقتصر على الأسرة، وإنما يشاركها في ذلك وسائط أخرى يتفاعل معها الطفل ويحتك بها عن طريق الممارسة والعمل والخبرة ـ والتي من بينها وسائل الإعلام بمختلف أنواعها خاصة منها المرئية المتمثلة فيما يبثه التلفزيون من برامج ومسلسلات وأفلام، وأشرطة الدعاية والإعلان....

حيث تعتبر من أشد المؤثرات قوة وفعالية في تكوين شخصية الطفل، ويظهر ذلك من خلال ما يتلقاه هذا الأخير من معلومات مدعمة بالصورة والمؤثرات الصوتية، التي تشد انتباهه، وتوقظ جميع حواسه، فيكون أكثر تقبلا واستيعابا لكل ما ينقل له، مما يؤثر ـ إذا لم يتم التحكم في المحتوى المعروض عليه ـ على منظومة القيم التي ينبغي عليه التقيد بها والعمل بموجبها، من حيث انتمائه لمجتمع تطبعه ثقافته وخصوصياتها، إذ يتلقى معايير وأفكار قد تصله بشكل عشوائي وغير منظم أو مراقب، مما يكسبه اتجاهات وقيم يصعب تعديلها أو تغييرها في المستقبل.

وهكذا نجد أن أكثر الفئات تأثرا بالإعلام المرئي الجديد، الذي هو من أكثر وسائل العولمة وأقواها في تجذير التبعية وروح التخلف والانبهار بالآخر، بما تطرحه من أنماط جديدة في الفكر والمبادئ والسلوك فئة الأطفال والشباب، الذين

---

[1] إسماعيل الملحم، تعلم الطفل في الأسرة والمدرسة، مرجع سابق، ص 64.

أصبحوا يقضون وقتا طويلا في مشاهدة ما يعرضه عليهم التلفزيون خاصة من برامج تحمل في دلالاتها بدائل ثقافية، ومضامين تدعو إلى قيم واتجاهات جديدة في العلاقات أو التصورات، تعمل جميعها وبشكل غير مباشر على انفصال الأفراد (أطفالا كانوا أو شبابا) عن واقعهم البيثقافي والاجتماعي، ويقلدون الآخر المخالف لهم في التوجهات والمعايير والأخلاق، وفي هذا يرى الطيب محمد صالح[1] : "أن برامج التلفزيون جاءت بأنماط أجنبية من الفكر والسلوك، ليست بالضرورة ملائمة للبيئات العربية، ثم أخذت تتسرب إلى عقول الناس ووجدانهم، ومنها أن هذه الوسائل تؤكد أحيانا ما هو زائف وتضعف أو تقضي على ما هو أصيل".

وفي خضم التناقضات بين ما يقدم للطفل في المدرسة من مواد يدور مضمونها حول السلوك الإيجابي والقويم في المجتمع والذي تضمنه مبادئ التربية الأخلاقية والإسلامية، إضافة إلى ما يخضع له من أنماط وأساليب التربية الأسرية، القائمة في جوهرها على غرس الأفكار والعادات والقيم النبيلة والحميدة في منظور الموروث الثقافي للمجتمع، وما يقدم له من برامج تجارية ـ البعض منها ذات محتوى رديء ـ يعيش الطفل هذه التناقضات بكل أبعادها، فيبلور مفاهيمه ومداركه الذهنية واتجاهاته نحو الموضوعات والأفكار والمبادئ على أسس غير علمية، لكون هذه البرامج تدعوا في غالبها إلى اللعب والترفيه والتقليد، وإلى استهلاك ما يعرض عليه من نماذج ثقافية بديلة، برامج تخاطب المشاعر والعواطف عوض أن تخاطب العقل والذكاء.

فينحو الطفل أو الشاب منحى الخطأ، ويتخذ لنفسه قيما بديلة عن تلك التي تشكل جزءا من الفكر المرجعي الثقافي الذي أكسبه إياه المجتمع، فيتجه في سلوكاته وفي تفاعلاته مع الآخرين اتجاها يرمي إلى رفض المعايير والأعراف

---

(1) الطيب محمد صالح، في عبد الرحمن بن إبراهيم الشاعر، "الأبعاد التربوية لبرامج الأطفال المعدة محليا"، رسالة الخليج العربي، (العدد 42، 1992)، ص 91.

والأخلاق التي يخالها أضحت تقليدية، بالية، ومكبلة للطموح والانطلاق، لكونها بعيدة، ولا تساير روح العصر.

وهكذا يتولد الرفض المطلق للقيم المكتسبة بظهور ميل جديد للاستقلالية وتوكيد الذات، وهي سلوكات يصاحبها شعور ـ قد يكون خاطئا في بعض الأحيان ـ بالتهميش والرفض، والإحساس المتنامي بالتناقض بين التنشئة الأسرية التقليدية للأبناء ومعطيات الواقع المحلي والخارجي الذي تقدمه الصورة والصوت وهذا ما يستجر في مراحل لاحقة حالة من الصراع الثقافي في المجتمع. مما يفسر لنا بعض القيم السلبية والاتجاهات السلوكية والفكرية الملاحظة لدى الأطفال والشباب عندنا، والتي قد يكون للتلفزيون دورا في بروزها من خلال ما يبثه من برامج وأشرطة ومسلسلات وأفلام الحركة، وبرامج الفنون المختلفة، والتي منها:

- قيم الاتكالية، والهروب من تحمل نتائج الفعل والسلوك.
- قيم الربح السهل (من خلال الإعلانات المختلفة) بدل القيم الحاثة على العمل المنتج والإبداع.
- قيم تهدف إلى تأصيل الإحساس بالعجز والدونية والتخلف والإيمان بالقدر، بدل القيم الدافعة للسلوك الإيجابي، الحاثة على الخلق والابتكار.
- قيم الانفتاح الثقافي والاقتصادي على النتاج المادي والعقلي للغرب، وتقديمه على أنه النموذج الأمثل للحياة والتنمية.
- قيم التقليد والمحاكاة لكل ما هو أجنبي كرموز للتطور، ويظهر ذلك بجلاء في طريقة اللباس، وتسريحات الشعر، ووضع حلقات الأذن، والرقص في بعض زوايا الشوارع ...
- قيم تدعو إلى سلوك العنف كمظهر من مظاهر المدنية الحديثة القائمة على القوة المادية والسيطرة (وقد طالت هذه القيم للأسف المدارس على مختلف مراحلها)، وما ترتب عنها من ألوان السلوك الخاطئ والماجن من مثل التسكع

والاعتداءات، وأعمال النشل والسرقة، وتناول المخدرات والمسكرات والتباهي أمام الملأ بذلك، والغلظة في الألفاظ، انعدمت من جرائها صور الاحترام بين الصغار والكبار... وغيرها، وهي في واقع الحال سلوكات ومظاهر ما كان لها أن تطال مجتمعنا المسلم والمحافظ.

لهذا تناولت العديد من الدراسات موضوع التأثير الإيجابي والسلبي للتلفزيون على الأطفال، ومن هذه الدراسات تلك التي قامت بها هالة العمران[1] حول تأثير وسائل الإعلام المرئية على انحراف الأطفال في دولة البحرين، اتضح فيها أن الطفل البحريني يقضي ما بين 4 إلى 5 ساعات يوميا أمام التلفزيون، وأن ما يتعلمه الأطفال من البرامج التي يعرضها عليهم عادات خاطئة تتمثل في التدخين والعنف والسرقة، وما إلى ذلك من الممارسات الخاطئة.

وهذا ما يؤكده زكي الجابر[2] في كون الأدبيات الإعلامية تشير إلى أن الدول النامية تواجه مشكلة الاستهلاك المتزايد للمواد الإعلامية المستوردة غير المنسجمة مع حضارات هذه البلدان وقيمها.

وفي دراسة عنوانها : "وضعية الطفل أمام الرسوم المتحركة التي تمتاز بالعنف" خلصت النتائج إلى أن للرسوم المتحركة التي فيها عنف دورا في ظهور العدوانية عند الطفل، وأنه كلما تكررت مشاهدته لها، كلما زاد بروزها عنده[3]. وفسر هذا الاتجاه نحو العنف بأنه تعبير عن سلوك الكره والتدمير للفرد الغير متكيف، وفي الوقت ذاته يعبر على حيوية ودينامية الفرد وسعيه لتأكيد ذاته.[4]

---

(1) هالة العمران، في نفس المرجع ، ص 91.

(2) زكي الجابر، في نفس المرجع، ص 92.

(3) بعداش نوال، حرواقة ضاوية آسيا، وضعية الطفل أمام الرسوم المتحركة التي تمتاز بالعنف، مذكرة ليسانس، قسم علم النفس والعلوم التربوية: جامعة منتوري، 1991.

(4) Sillamy Norbert, Dictionnaire usuel de Psychologie, Bordas : Paris, 1983.

ذلك أن الطفل في مرحلة الطفولة، يحاول عادة الخروج من صراعه الأوديبي ـ حسب ما تؤكده نظرية التحليل النفسي ـ بتقمص الصورة الوالدية، وقد يكون نموذج الرسوم المتحركة التي تجسد له صورة البطل الوهمي هو النموذج الذي يختاره كبديل للأب. كما يمتاز الطفل عادة بالنزعة إلى التقليد والمحاكاة، إذ يشغل التخيل حيزا كبيرا في نشاطه العقلي، ويتأثر بالأشياء التي يراها في حياته (اللون والحركة، الحجم والصوت...) مادامت ضمن إطار خبرته وخياله، فيسعى إلى تقليد ما يراه ويشاهده ويعتبره الصواب المعبر على الواقع.

حيث غالبا ما يتخذ الطفل وضعيتين أثناء مشاهدته للتلفزيون[1] :

- **وضعية الانغلاق (Position de renfermement)** : ويظهر ذلك خلال مشاهدته للرسوم المتحركة، حيث يحاول أن يتقمص شخصية البطل، ويقوم بنفس سلوكات وحركات هذا الأخير مع زملائه أثناء العرض.
- **وضعية الانفتاح (Position de l'ouverture)** : حيث يحاول الطفل أثناء مشاهدته للرسوم المتحركة أن يستوعب كل السلوكات التي يراها والألفاظ التي يسمعها ومختلف الحركات، مما يغذي خياله، ويستثمر تلك المشاهد أثناء تفاعله واحتكاكه بالآخرين الذين حوله. وأيا كانت القيمة التربوية لما يعرض عليه فإنه سيترك أثرا بالغا في شخصيته، وهذا ما يجعل التلفزيون أكثر وسائل الاتصال مسؤولية في تكوين اتجاهات الطفل السلبية نحو الأشياء والحوادث.

وفي دراسة أشرفنا عليها حملت عنوان: "تحليل ظاهرة العنف المدرسي باستخدام طريقة تحليل مضمون الخطاب"[2] توصلنا إلى استنتاج الدور الذي تؤديه بعض برامج التلفزيون ـ خاصة أفلام الحركة ـ إلى جانب عوامل أخرى في تكوين

---

(1) بعداش نوال، حرواقة ضاوية آسيا، المرجع السابق.

(2) خيري شفيقة، دراسة ظاهرة العنف المدرسي باستخدام طريقة تحليل محتوى الخطاب، مذكرة ليسانس في علوم التربية، قسم علم النفس والعلوم التربوية: جامعة منتوري، 2001.

ثقافة العنف لدى بعض أطفال العينة الذين شملتهم الدراسة، إذ أصبح العنف هو الاتجاه الغالب الذي يمثل بالنسبة لهم قيمة سلوكية في حد ذاتها بغض النظر على نتائجه، لا تتناسب مع قيم التسامح التي أضحت تعبر في نظرهم على مفهوم الضعف والخوف والهوان.

كما تبين أن معظم الأطفال الذين شكلوا عينة الدراسة مدمنون على مشاهدة ما يعرضه التلفزيون من برامج عبر مختلف القنوات الفضائية، تروج لقيم سلوكية واجتماعية غريبة وبعيدة عنهم، وأنهم لا يجدون حرجا (بالنسبة للمتواجدين على عتبة البلوغ الجسمي) في تبني بعض هذه القيم والاتجاهات كتعبير منهم لرفضهم قيم التسلط التقليدية التي تزخر بها الثقافة الجزائرية، وتجسدها الأسرة والمدرسة ومؤسسات المجتمع الأخرى، لكونها لا تحقق لهم مكانتهم، ولا تشبع الحاجات لديهم نحو تأكيد الذات والاستقلالية والتحرر من سلطان العادات والقيم الثابتة. وهو ما يؤدي إلى ظهور مشاعر القلق والإحباط لديهم نتيجة النمط السيء الذي تقدمه لهم المرجعية التربوية والاجتماعية التقليدية والمحافظة، فينشأ لديهم الشعور بالانتقام وإيذاء الآخرين والتعدي على الممتلكات والتمرد على قواعد النظام العام والحط من قيم الراشدين وعدم اقتناعهم بها.[1]
ومما لا شك فيه يقدم هذا الوضع فرصة مناسبة لبرامج التلفزيون خاصة تلك البرامج الأجنبية المبثوثة عبر الأقمار الصناعية لتجذير ثقافة التغيير وإحلال بدائل جديدة في التفكير والسلوك بين الأطفال والشباب حسب ما يرونه ويشاهدونه يوميا وبصورة دائمة.

---

[1] نصر الدين جابر، "أسلوب التقبل/الرفض الوالدي على تكيف الأبناء في فترة المراهقة"، مجلة العلوم الإنسانية، (العدد 9، 1998 جامعة منتوري قسنطينة)، ص ص 48–49.

وعود على بدء، إن الزيف الذي تطرحه القوى المهيمنة في العلم والاتصال والثقافة، من بدائل التغيير والتجديد تؤكد خطورة ما يتعرض له مجتمعنا الجزائري بكل شرائح أفراده من ألوان التأثير المباشر الذي يصيبه في صميم فكره ومعتقداته، وقيمه ووجوديته.

مما يحتم علينا التصدي له بإجراء تحليلات معمقة وشاملة لمضامين وسائل الإعلام، وما تحمله من قيم وأفكار واتجاهات وتصورات، وتأثير كل ذلك على طبيعة العلاقات النسقية بين الأفراد والجماعات. ولن يتم لنا ذلك إلاّ بتبني استراتيجية تقوم على التحصين الثقافي بالدرجة الأولى، وبترسيخ نظام من القيم والاتجاهات السلوكية النافذة والفاعلة في عقول الأطفال منذ البواكير الأولى للطفولة، عن طريق التربية والتنشئة الاجتماعية التي تتكفل بها مؤسسات المجتمع. وبالموازاة مع ذلك تشجيع وتمويل الإنتاج الثقافي الوطني الحقيقي من أجل توفير البديل الإعلامي المناسب من البرامج التي يتم إعدادها محليا من طرف الكفاءات الوطنية المتخصصة في مجالات الإعلام والاتصال والتربية والاجتماع.